

جامع القرويين أقدم جامعة

لمحضرة العلامة سيدي احمد الصبيحي

نُبت في التاريخ أن جامع القرويين بفاس عاصمة المغرب العلمية بنته المرأة القانتة الصالحة أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني عام ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م لما قدمت مع أبيها وأختها في وفد القيروان على مولانا إدريس بن أبي فاس رضي الله عنه .

وأطلقت مجلة الهلال الصادرة عام ١٣٥١ هـ جزء ١ ص ٥٠٨ أن القرويين بفاس أقدم مدرسة كلية في العالم وذكرت توارد طلاب العلم عليها حتى من أوروبا وإن منهم البابا سلفستر أول من أدخل إلى أوروبا الأرقام الحسابية بعد أن اتقنها في القرويين كما برسالته هو إلى الامبراطور انتون .

وجاء في مجلة الهلال المذكورة عام ١٣٥١ هـ ج ٥ ص ٦٧٤ بقلم الدكتور زكي علي أن أقدم كلية في أوروبا هي كلية الطب بشفر سالرنو قرب نابولي بإيطاليا إذ لما فتح هذا الشفر سنة ١٠٧٦ م النورمانديون الذين كان ملوكهم يشجعون نشر الثقافة العربية عقب احتكاكهم بهم في صقلية جنوب إيطاليا نظموا مدرسة سالرنو حتى صارت كلية .

أما الأكاديميات فإنها انشئت بعد ذلك بكثير فبافرانسا سنة ١٦٣٥ وبألمانيا سنة ١٧٠٠ وبانكلترا سنة ١٧٦٨ وبأمريكا سنة ١٧٨٠ .

وليس في المعروف من التاريخ القديم عن الصين والهند وبابل ومصر ما يفيد وجود شبه الكلية أي المدرسة الجامعة التي يدرس فيها كل العلوم .

كما أنه توجد مساجد تأسست قبل تأسيس القرويين بالشام والعراق ومصر وغيرهن ولكنها ليست بالثابتة

المذكورة كجامع الزيتونة بتونس فإن تأسيسه كان عام اعلم (١٤١ هـ - ٧٥٨ م) المنقوشة على اقواس بيت الصلاة فيه بالاقوس المواجه لحل المصحف كما للشيخ يرم في صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والافطار ج ١ ص ١٢٢ .

أما جامع الازهر ثالث الكليات بأفريقيا فانما أنشأه مسجداً للقاهرة المغزية القائد جوهر الصقلي الداخل لمصر من قبل الفاطميين بالمغرب عام ٣٥٩ - ٩٦٩ كما هو معلوم . إذاً ثبت الفخر للقرويين بالمغرب أنها أقدم كلية بالعالم أفلا يكون هذا حافزاً لنا معشر المغاربة حكومة وشعباً على أن لا تبقى أحط كلية بالعالم ؟

لقد كان جامع القرويين في العهد القديم قبل التنظيم مفخرة كبرى من حيث تدريس العلوم على أتم وجه من أساتذة جهابذة يجمعون في تدريس مختصر الشيخ خليل بين شرعي الحنفي والزرقي وحاشيتي الرهوني وجنون وغيرها وفي تدريس جمع الجوامع للإمام السبكي بين شرح المحلى وخواشي البناي والعبادي والشرييني وغيرها وفي تدريس التلخيص في المعاني والبيان بين مختصر السد وحاشية البناي تارة والمطول والاطول وغيرها تارة وفي غير ذلك غيره من المؤلفات المبسطة والمحققة وكثير من المدرسين يدرسون بشروحهم وحواشيمهم .

نعم كان سير التعليم موكولا الى حسن اختيار التلميذ او ولي أمره ان كان ذا خبرة وبصيرة مع لزوم السنين الطوال في التحصيل الذي لا يحصل الا للقليل .

أما في عهد التنظيم الذي أجراه المخزن السعيد بالقرويين المذكورة فقد تدورك خلل سير التعليم المذكور بما كفل الفائدة المؤكدة للعموم في أقصر مدة ، ولكنه لا زال في طور التجربة التي كشفت بعض نقاط ضعف سيما في اختيار الاساتذة والكتب لكل فن .

احياء العلوم وازدهارها في عصر الدولة العلوية (تمة)

ثم ولده السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن من آثار نهضته العلمية طبع شرح الخرشى الصغير في اجزاء ستة بالمطبعة الفاسية طبعاً أنيقاً متقناً لم يسبق له مثيل ، وكذلك شرح الشيخ التاودى على العاصمية ، وشرح ميارة الصغير على المرشد المعين والازهرى على الجرومية وهو أول ما طبع بفاس وتحييس كمية وافرة على القرويين من ذلك المطبوع ، ومنها تشجيعه للمؤلفين وتنشيطه لهم مادياً وأدبياً واداء المصاريف حتى أجرة النسخ ومنها توجيهه لمصر أيام محمد سعيد جماعة من الطلبة لتلقي العلوم الرياضية ، ومن نبغ من الوفد وبرع عبد السلام الشريف العلمي مؤلف شرح الوزكاني وضوء التبراس في حل مفردات الانطاكي بلغة فاس ، والبدر المنير في علاج البواسير والاسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة ، وهو مخترع الآلة ذات الشعاع والظل (مجانة ساعية) وجل هذه الكتب طبع بفاس ومنهم محمد بن كيران مخترع فن الدائرة عوضاً عن الربع وغيرها من مهم الاختراعات ذات البال ولكنها وبلاأسف ماتت بموته اذ لم يقدر نشرها بالطبع ولم يخلف الرجل عقباً محتفظاً ، وهو أول من جعل قاضيين بفاس وذلك أن القاضي الشريف مولاي محمد بن عبد الرحمن طلب من جلالته من يعينه في الاحكام فأجابه لذلك وعين أبا حفص عمر الرندة وكان ذا صرامة في الاحكام شديد الشكيمة على المتبدعين وأصحاب الفجور .

فعلى الموكل اليهم رقابة ذلك أن يخلصوا النصيح للحكومة بما ثبت لديهم فيه كما على كل من تحقق لديه شيء منه أن يعلنه لها بأدب وحسن قصد فإنها ما بدأت التنظيم وصارت تصرف عليه المصاريف الباهظة في تحسين رواتب العلماء وما الى ذلك الا لتتمه وتبقى مفخرة القرويين في العصر الحاضر كما كانت في الماضي الغابر .

فلتعاوض معها في ذلك حرصاً على العلم وتعلمه لذاته والفخر به أيضاً أمام العالم كذلك والله الموفق سبحانه لارب غيره ولا خير الا خيره . أحمد الصبيحي

ثم ولده السلطان المولى الحسن ومن أشهر آثاره في النهضة العلمية بعثه البعوث لتلقي العلوم الحربية والرياضية بمصر ومختلف دول اروبا ، ومن كان وجهه لانعام دروسه الطبية بمصر الطبيب الماهر عبد السلام العلمي حسبما صرح بذلك في ديباجة مؤلفه البدر المنير المشار له حيث قال : « وقد جمعت له هذا التقييد من عدة كتب ورصعته باعمال الطب الجديد حسبما حضرناه في الاسبطالية الكبرى بمصر القاهرة . بمدد مولانا المنصور . بالله من أحياء موات العلم بهمة السنية الخ... » ومن آثاره العلمية الجاري نفعها طبعه بالمطبعة الحجرية الفاسية شرح الاحياء للشيخ مرتضى الزبيدي آخر الحفاظ عام ١٣٠٤ وحبس عدداً وافراً منه على خزانة القرويين ، وطبعه لتأليف خوجة الطوسي في تحرير اصول الهندسة لأقليدس وأمره لشيخه أبي العباس أحمد بن الحاج بتأليف في تاريخ الدولة العلوية وأسعفه على ذلك فألف الدر المنتخب يزيد على خمسة عشر مجلداً ومات قبل أنعامة ، وأمره لكاتب حضرته انبي العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز بتأليف كتاب في الاستدلال على صحة الكيمياء فألف رسالته مطلع الضياء في الاستدلال على صحة الكيمياء وأنشاء قراءة المختصر الخليلي بعد صلاة العصر ورداً كل يوم بحيث يتختم مرة في الشهر ولا زال العمل جارياً بذلك الى اليوم وجعل جملاً لكل من يحفظه ويمليه عن ظهر قلب وينظمه في سلك اهل الطبقة الرابعة من العلماء ، وفي مدح هذا السلطان يقول أبو محمد عبد السلام العلمي المذكور :

بأميرها الشهم الجواد فاس تفوق على البلاد
ولها الاله به بنى مجدداً على أقوى عماد
مجدداً يكاد بناؤه يعلو على السبع الشداد
والعلم فيها آخذ في كل وقت في ازدياد
ربحت تجارتها فما يخشى عليه من كساد

ثم ولده أبو فارس المولى عبد العزيز فكم أجرى من جرابات لا يستهان بها على المدرسين بمجامع القرويين على اختلاف طبقاتهم وعلى طلبة المدارس المنقطعين لتلقي العلوم ، والبحث في منطوقها والمفهوم تشجيعاً لهم وتنشيطاً واغراء على الدؤوب على نشر العلم ومحاربة داء الجهل ومن آثاره بفاس انشاء قراءة البخاري والشفاء بالفرج الادريسي الازهر شروق كل يوم وعين لذلك جلة علماء عصره ورتب لهم جراية وافرة .

ثم اخوه السلطان ابو السخاء المولى عبد الحفيظ ، ومن آثار نهضته العلمية ما طبعه بفاس من الكتب القيمة النادرة الوجود كشرحه على خطبة مختصر خليل في جزء ومؤلفه في الرد على متصوفة الزمان ، وحواشي الشيخ التاودي على البخاري في اربع مجلدات والمشارك لعياض في مجلدين وحاشية ابن سودة على رسالة الوضع في جزء وحاشية الوزاني في الانتصار للسدل في جزء ونخفة الملك العزيز في الرحلة لباريز للعرراوى في جزء ومعيان الاختبار بين المعاهد والديار لابن الخطيب وفتح الودود لابن ابراهيم الشنجيبي مع نيل السؤل لابن عاصم وحواشي الشيخ ياسين على الخلاصة مع الكافية وشرحها لابن مالك في مجلدين وبداية المجتهد للحفيد ابن رشد في مجلد ونظم المتنائر من الحديث المتواتر للكتاني ومجموعة قصائد المترجم في جزء الكل بالطبعة السلوكية الفاسية الامامية ، ومنها ما طبع بالمطبعة الحجرية التجارية الفاسية من ذلك مشرب العام والخاص لليوسي في مجلد وحواشي ابن زكري على البخاري مع تكميل جنون وتكميل المترجم لها في خمس مجلدات واختصار المواهب النحوية للشنجيبي مع القول المختار على الالفية والاحرار طبع منها مجلدان فقط ومفتاح الاقفال للسجلجاسي في مجلد وفيض الفتاح للشنجيبي في مجلدين ونشر البنود للشنجيبي المذكور مع شرح حلولوا لجمع الجوامع في مجلدات ثلاث وشرح ميمية الشيخ حمدون في السيرة طبع منه جزآن ونفحة المسك في مجلد وشرح الخريدة لابن كيران وغير ذلك ، وكذا ما طبع بمصر من الكتب التي كانت أعز من بيض الانوق كتفسير ابي حيان المسمى البحر المحيط مع النهر الماد له والدر اللقيط في مجلدات ثمان وشرحي الابي والسنوبي على مسلم في مجلدات سبع والمنتقى للباقي على الموطا في مجلدات سبع والروض للسهيلي في مجلدين والاصابة لابن حجر مع الاستيعاب لابن عبد البر في مجلدات اربع والاحكام الكبرى لابن العربي المعافري في مجلدين وشرحي الخطاب والمواق على مختصر خليل في مجلدات ست وشرحي زروق وابن ناجي على الرسالة في مجلدين ونظم المترجم لمغني اللبيب مع شرحه للحوضي وحواشي فتح الصمد على ذلك لابن مبارك الروداني في مجلدين ، وقد فرق عدداً وافراً من جميع ما ذكر على أعيان العلماء وجل خزائن الكتب شرقاً وغرباً وأمر كاتب حضرته أحمد بن المواز بتأليف كتاب في الاحكام الفلكية فألف الطبيعة الجليلة وأمر شيخه

الشيخ المهدي الوزاني بشرح منظومته يا قوتة الاحكام فشرحها في مجلدات اربع وأمر الشيخ احمد بن الخياط بشرح نظمه لجمع الجوامع فكتب فيه عدة كراريس آية في التحقيق والابداع ومات قبل اتمامه .

وكم وصل العلماء بصلات وقرر لهم من عوائد وهو آخر من توجه من قصره لحضور اختتام العلماء اقتفاء لآثار سلفه فقد حضر ختم الشيخ المهدي الوزاني لمختصر خليل بجامع ابي الجنود .

ثم اخوه السلطان ابو المحاسن المولى يوسف وهو ثالث المؤسسين التدريس بكلية القرويين فبنفس ما تبوأ عرش اسلافه الكرام أصدر أمره العالي بإنشاء مجلس تحسني لكلية القرويين ينظر فيما تتحسن به حالة التدريس والتعليم وبترقية جرات المدرسين ذوي المراتب وأسند الرئاسة فيه أولاً لنائب الصدر الاعظم في المعارف الفقيه العلامة أبي عبد الله محمد الحجوي ثم بعده للفقيه العلامة أبي العباس احمد بن الخياط ثم في عام ١٣٣٦ أصدر اليه أمره العالي بما لفظه بعد الافتتاح :

الفقيه الارضى رئيس المجلس التحسيني لكلية القرويين عمرها الله بدوام ذكره الشريف السيد أحمد بن الخياط سددك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد فلا يعزب عن علمكم ما لجناينا الشريف من الاهتمام الكلي بالعلم والعلماء وما قام به جناينا العالي بالله منذ اعوام من تمهيد الوسائل التي تتحسن بها حالة التعليم ، ابتغاء الحصول على النفع العميم ، اذ انتشار العلم في الامم هو الشرط الاول في حياتها وحفظ كيانها وشريعتها ، ولذلك لما تكررت منكم استعطافات جناينا الاسمي ، وطلب النظر فيما تنتعش به هذه الفئة المنتسبة لجانب العلم الاحمى ، اقتضى نظرنا السديد ، ورأينا الموفق الرشيد ، بعد التأمل في القضية ، وأعطاها حقها من الاهمية ، أن اصدرنا امرنا الشريف بترقية رواتب العلماء ذوي المراتب بشرط مواظبة كل منهم على تدريس فنون العلم التي يرشحون لتدريسها بعد ، أما العلماء ذوو الرتبة الاولى فيشترط في حقهم التدريس كذلك لكن لا يتقيدون بتعليم فن دون آخر لاستحقاقهم تدريس سائر العلوم وقدر ما ينفذ سنوياً من الاجاس لكل واحد من مدرسي الرتبة الاولى اثنتا عشرة مائة بسيطة مخزنية ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثانية سبع مائة وعشرون بسيطة ولكل واحد من مدرسي الرتبة الثالثة اربعمائة وثمانون بسيطة ولكل واحد من

مدرسي الرتبة الرابعة ثلاثمائة وستون بسيطة ثم يجري كل قدر على التقسيط لتنفيذ له شهرياً زيادة على الصلات السنوية كما اقتضى نظراً الشريف ابقاء ادارة شئون القرويين منوطة بمجلس تحسين التدريس كما كان، نعم لمزيد الاهتمام والرغبة في سير اعماله على ما يرام، صدرت اوامراً العالية بالله بأن يكون يعرض خديمنا وزير العدلية الشريفة كل ما يتعلق هناكم بالمعارف الاسلامية على مجلس مرتبة العلوم الدينية المنعقد تحت رئاسة جنابنا الاسمي متركباً من خدامنا الوزير الصدر الاعظم ووزير العدلية ووزير الاحباس وحاجب حضرتنا الشريفة وبان يعين أمين من جانبنا الشريف من أعيان ابناء فاس يكون مكلفاً بدفع رواتب العلماء مع السهر على تعاقد أحوال التدريس وقيام كل عالم بوظيفه بحيث لا يقبض الرواتب المسطرة، الا من استكمل الشروط المذكورة المقررة، ويعلم الله أن القصد من هذا كله هو زيادة انتشار العلوم وتوفر جمع العلماء وتحسين التعليم حقق الله الرجاء وعليه فنامرك ان تجمع سائر العلماء ذوي المراتب الاربعة وتقرأ عليهم كتابنا الشريف هذا ليقوم كل منهم بما يجب عليه ويعلم أن المرتب شرطه التدريس والقيام، لا مجرد الاتصاف بالعلم والسلام ١٦ ربيع الثاني عام ١٣٤٦ .

ثم اقتفاه في ذلك ولده سلطاننا الحالي أبو عبد الله سيدي محمد الثالث ادام الله عزه ونصره وجل بمحاسنه عصره فبنفس ما جلس على اريكة عرش اسلافه الاكرمين افتتح اعماله المبرورة نصره الله باعمال نظره الشريف فيما يحفظ نظام الدين ويحميه من فوضى المعتدين وصرف مع كمال الاعتبار وجهته المنيفة الى كلية القرويين فاصدر امره الشريف بترتيب ازمنة التعلم والتعليم ترتيباً دورياً

وعين لمراقبة التدريس بعض طلبة الكلية القروية من اهل فاس في مقابلة راتب شهري قدره ١٦٥٠ فرنكاً وقسم المدرسين الى ثلاث طبقات، وحصر عدد الاولى في ثمان ورتب لكل واحد منها ١٥٠٠ فرنكاً مشاهرة وحصر عدد الثانية في ثني عشرة والراتب الشهري لكل منها ١٢٥٠ وحصر عدد الثالثة في اثني عشر براتب شهري قدره الف فرنك لكل مدرس وعين لكل طبقة ما تتعاطى تدريسه من الكتب العلمية على ان تبتدئ الدروس من الساعة الثامنة الى الحادية عشرة صباحاً ومن الثانية الى الخامسة مساءً وحدد لكل درس ساعة زمنية وانيط بكل مدرس لقاء ثلاثة دروس يومياً مع تخصيص كل فرد من افراد الطبقات الثلاث باقراء فن لا يتجاوزها الى غيره وجعل ساعات التعليم بالنسبة للمتعلم ستاً والنسبة للمعلم ثلاثاً يفصل بين الست ساعات بشرطها انتجاعاً للراحة وسعيّاً وراء فائدة الاستراحة، واناط ملاحظة مراقب الدروس برئيس المجلس العلمي بفاس وعلق شئون المجلس العلمي بانظار المجلس الاعلى بالرباط المتركب من وزرائه الكرام :

هذا واننا نؤمل من حنان مولانا السلطان وشفقته على رعيته وسعيه في ترقيتها وتقدمها واخراجها من ظلمات الجهل الى نور العلم ان ينظر نظراً خاصاً فيما اسسه من النظام بهذه الكلية الجامعة فيسند لكل مدرس ما يحسن تدريسه من الفنون ويستطيع ابلاغه للتلميذ ويبدل من الكتب المقرر تدريسها النافع منها بالانفع ومن الفنون الحسن بالاحسن اذ بذلك تحصل ضالة مولانا المنشودة ويرى في رعيته ما يسر جلالته الكريمة ادام الله فخره ونصره وخلد في المعاني ذكره .
عبد الرحمن بن زيدان

اسبيرين (معامل الرون)

اشهر من ان يعرف بها
- تباع في سائر الصيدليات -



- دواء -
الم الاسنان - ووجع الرأس
ونزلات البرد
والروماتزم

هذا وقد سبقت شهرة القرويين في العالم بناء هذه المدارس وذاع صيت علمائها في الآفاق قبل المدارس وبعدها ، كيف وقد حضر تأسيس فاس مع الادارسة امثال بني الملجوم الذين كان منهم وزراء وعلماء وقضاة وبقي بيت علم وقضاء زمناً طويلاً بعد الادارسة وأول قضاة فاس عامر بن محمد القيسي على عهد المولى ادريس سمع من مالك وغيره ، ويكنى في شهرة القرويين اوائل القرن الرابع وجود دراس بن اسماعيل بها ذلك العالم الذي تلمذ له المغرب والمشرق وترجمته مشهورة توفي بفاس سنة ٣٥٧ وهو الذي ادخل مذهب مالك للمغرب ، وابن محسود الهواري قاضي فاس صاحب كتاب الزيادات على المدونة المتوفى سنة ٤٠١ وغيره من القضاة والفتين الذين تقدموه وتأخروه وكان بالقرويين بنو العجوز الكتاميون الذين دامت فيهم رئاسة العلم والفتوى من أول القرن الخامس الى أواخر السادس واشهرهم عبد الرحمن الذي كانت الرحلة اليه من اقطار الارض تلمذ لدراس السابق وكان بنوه خمسة كلهم مشاهير كبار وعندهم أخذ القاضي عياض وعياض نفسه دخل فاساً واستمد من القرويين واستمدت منه ومحل نزوله لا زال معروفاً بزقة حجامه عند بني الفريديس الى الآن يتبرك به ودخلها ابن رشد الفقيه وابن العربي وبها توفي ، ومن علمائها أبو عمران موسى ابن عيسى بن أبي حاج انفاسي وبيتهم شهير جمع من عوالي حديثه مائة ورقة وكانت الرحلة اليه من الاندلس وافريقيا ثم استوطن القيروان فكان رئيس علمائها في وقته وله التتاليف الحسنة في الفقه والحديث ومن تلامذته عبد الله ابن ياسين مؤسس الدولة الممتونية على اساس الفضيلة توفي أبو عمران سنة ٤٣٠ ، ومن بينهم أبو محمد يسكر الغفجوني حامل لواء الفقه بالديار الافريقية

وصاحب الحاشية البديعة على المدونة توفي سنة ٦٩٨ ، وأبو ذر الخشني وكانت اليه الرحلة من اقطار الارض ، وأبو الحسن بن القطان الفاسي قاضي سجلامة المحدث الشهير توفي سنة ٦٢٨ ، وأبو الفضل راشد ، وأبو محمد صالح الهسكوري ، وأبو محمد الشريف الكركي ، وأبو زيد الجزولي الذي كان يحضر مجلسه أكثر من الف من الفقهاء ، ثم بيت الوانشرسيين والبدوسيين والفاسيين الفهرين والسوديين الميرين وغيرهم مما يطول ذكره وتجده مفصلاً في الجزء الرابع من كتاب الفكر السامي^(١) وبذلك تعلم مقدار شهرة القرويين قبل تأسيس المدارس وبعدها. وقد نبغ فيها في غير العلوم الدينية افراد كثيرون ، وقد دخل ابن باجة المعروف بابن الصايغ فاساً وتوزر فيها ليحيى بن يوسف بن تاشفين وجاء في ترجمته انه اصلح حال العلوم الرياضية هناك من طب وهندسة وفلسفة وغيرها اذ كان امام العصر في ذلك وفي غيره توفي سنة ٥٣٣ بعد ما لبث بفاس دهرًا طويلاً ، واشتهر بفاس عبد الله بن حجاج الحيسوبي المتوفى سنة ٦٠١ ، واحمد الجزنائي الطبيب الاديب توفي سنة ٧٣٩ ، وأبو المجاديري الفلكي المتوفى سنة ٨١٨ ، وعبد الله اليفري الحيسوبي الشهير المتوفى سنة ٨٥٦ ، وابن البناء الفلكي الفيلسوف المتوفى سنة ٧٢٠ ، ومحمد بن عمر الفلكي المتوفى ٧٩٤ ، وأبو عمران بن عقدة الصلتاني المتوفى سنة ٩١١ ، وغير هؤلاء مما لا نطيل به وانما جئنا هؤلاء على سبيل التمثيل اذ شهرة علماء القرويين أكبر من ان تحصر في مثل هذا المقال.

هذا ما يتعلق بسالف القرويين المجيد والذي يهمنا أكثر هو مستقبلها فعسى أن تتم نهضتها حتى يضاهي حاضرها ماضيها وتكمل زهرتها على عهد مولانا الامام سيدي محمد بن يوسف أنجح الله مسعاه ويسره لاعلاء مستوى هذه البلاد العلمي وأيده بروح منه .

محمد المهدي الحجوي

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي للوزير الاستاذ محمد الحجوي